

العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم:

دراسة وصفية بأمثلة وإحالات

من تاريخ السودان القديم

**The relationship between archeology and ancient history:
Descriptive study with examples and referrals from the
date of the old Sudan**

د. سامية بشير دفع الله

جامعة السودان المفتوحة

Dr Samia Basheer Dafa Alla

Open University of Sudan

الخلاصة

يمكن تقسيم المقال إلى ثلاثة أجزاء: مقدمتان، ومتمن وتوصية. شملت المقدمة الأولى تعريفاً لعلم الآثار، ونبذة عن نشأته وتطوره وأهدافه ومجالاته ومهام رجل الآثار. وفي المقدمة الثانية حديث عن مفهوم التاريخ، ونبذة عن العصور التاريخية الثلاثة وخصائص كل عصر.

في متن المقال محاولة لتحديد وجوه العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم حيث ترى الكاتبة:

1. أن عصور ما قبل التاريخ (المعتمدة في مادتها على الآثار) هي امتداد طبيعي سابق لعصر التاريخ القديم. وهي بهذا المفهوم تعطي التاريخ القديم عمقاً إضافياً.
2. أنه بسبب ندرة المادة المكتوبة المتعلقة بالعصر التاريخي القديم، أو بسبب طبيعتها القاصرة أو أحوال حفظها الرديئة أصبحت الآثار مصدراً لا غنى عنه لمؤرخ العصر التاريخي القديم، الذي وجد نفسه مضطراً للمزاوجة بين الآثار والشواهد الكتابية.

3. أن عمليات الكشوفات الأثرية في حد ذاتها قد أثرت، وما زالت تُثري، المادة المكتوبة القديمة باكتشافات كتابية جديدة.

4. لم تقتصر العلاقة على استفادة التاريخ القديم من الآثار؛ فقد استفاد علم الآثار - الذي يدرس

المجتمعات الكاتبة - من ميزة وجود الكتابة في تلك المجتمعات، وذلك باستخدام الكتابة كوسيلة

يعتمد عليها في التأريخ والتحليل، والتعرف على وظائف المباني والمعثورات.

بعد أن وضحت الصلة القوية والوثيقة بين الآثار والتاريخ القديم أوصت الكاتبة بالآتي:

هو أن تتبنى الكليات المتخصصة في الدراسات الإنسانية في الجامعات السودانية (بل والعالم العربي) جميعها أو بعضها نظاماً يتيح للطالب الجمع بين مادتين تجمع بينهما صلة قوية (بدلاً من نظام التخصص في مادة واحدة، المتبع حالياً) مثل التاريخ القديم والآثار، أو العلوم السياسية والتاريخ الحديث، أو الجغرافيا الطبيعية والجيولوجيا، وهكذا. إن مثل هذا النظام متبع الآن في بعض الجامعات الأوروبية.

ABSTRACT

The article may be divided into three parts as follows: 1. two introductory sections, 2. core, and 3. recommendation.

In the first introduction the author defines what is "archaeology". This is followed by a word about its first appearance as a discipline, progress, aims, fields and the tasks of an archaeologist. The second introduction contains a note on the "Meaning of history" and another word about the three historical ages and the characteristics of each age.

In the core of the article an attempt is made to define the relationship between archaeology and ancient history. The following points of contact between them are made:

1. The pre-historic ages are a natural extension to ancient history. In this way they give additional depth to ancient history in particular and to history in general.

2. Due to the dearth of written material pertaining to the “ancient” age, its defectiveness or any other reason, archaeology has become a very important source of information for the historian specialized in ancient history.
3. Scientific excavations have enriched the corpse of written material pertaining to ancient history through the discovery of new inscriptions every time and then.
4. On the other hand archaeology has benefited from the evidence derived from the inscriptions by using it in dating, analysis or identifying the functions of buildings, certain obscure objects and other finds.

Having argued for the close relationship between archaeology and ancient history, the author recommends that:

The institutions and faculties concerned with humanitarian studies in the Sudanese universities (or even in all the universities in the Arab world) or some of them should adopt a system whereby students can combine two related subjects (instead of the prevailing system of specializing in one subject) e.g. archaeology and ancient history, political science and modern history or physical geography and geology etc. Such systems are now performing quite well in some universities in Europe.

0. المقدمة

هذه المقالة محاولة للرد على تساؤلات طالما طرحها ويطرحها طلبة جامعيون يدرسون مادة التاريخ بالجامعات العربية؛ منها تساؤل عن سبب وجود مقررات تشبه مقررات الآثار في منهجهم الدراسي، كمقررات الحضارات القديمة التي تعرض لعصور ما قبل الكتابة؟ وتساؤل آخر عن سبب الإكثار من استخدام الشواهد الأثرية في تدريس تاريخ الدول والممالك القديمة التي كان لها معرفة بالتدوين، وتركت إرثاً مكتوباً لا بأس به كمصر الفرعونية أو مملكة كوش، أو غيرها من الممالك القديمة في الشرق الأدنى القديم؟ وبعبارة أخرى كان هؤلاء الطلبة يسألون عن العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم. لكن هذا الموضوع، في واقع الأمر، أكبر بكثير من أن يُحصَر في تلك التساؤلات المحددة. لذلك هدفت هذه المقالة إلى التوسع في الإجابة بنتاول الموضوع من عدة جوانب، تشتمل على النقاط الآتية، وهي تعريف الآثار، ونشأة علم الآثار وتطوره، وأهدافه ومجالاته، ومهام رجل الآثار، ومفهوم التاريخ، والعصور التاريخية، وأوجه العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم، وعدد

عصور ما قبل الكتابة امتداداً طبيعياً للعصر التاريخي القديم، ونواحي القصور في مصادر العصور التاريخية القديمة، وأخيراً وضع مادة التاريخ القديم في الجامعات العربية، وفي جامعات بعض الدول الغربية.

1. علم الآثار

1.1 تعريف الآثار وعلم الآثار

المقصود بالآثار هو المَخَلَّفَات المادية التي تركها الجنس البشري من الزمن الماضي، سواءً أكانت ظاهرة فوق سطح الأرض أم مدفونة تحتها. ويمكن تقسيمها إلى نوعين: آثارٍ ثابتةٍ مثل خرائب البيوت والقصور والمعابد والقبور والأهرام والقلاع إلخ، وآثار منقولة مثل الأدوات الحجرية والفاخارية والمعدنية والأسلحة والملبوسات والأثاثات ومختلف الأمتعة والتماثيل. وقد تحتوي المدافن الكبيرة على حجرات دفنٍ مُزَيَّنة بالتصاوير والنقوش الكتابية. وكثيراً ما تأتي حفريات العصور التاريخية بنقوش وكتابات بلغات أصحاب تلك الآثار، مما يثري المادة المكتوبة عن تلك الفترات. وبذلك يجوز وصف مثل هذه الآثار بالصفتين: الأثرية والكتابية في الوقت ذاته.

أما علم الآثار فهو العلم الذي يدرس ماضي الإنسان عن طريق حضارته المادية (أتكنسون 1965:4).

2.1 نشأة علم الآثار وتطوره

لم تكن الآثار مجهولة في حد ذاتها. فقد كان كثير من المسافرين والرحالة يعلمون بوجودها، كما كان كثير من هواة جمع التُّحَف يسعون للحصول على جانب منها بطرق شرعية أو غير شرعية. لكن يمكن القول: إنَّ الاهتمام العلمي بالآثار قد تبلور خلال القرن السابع عشر عندما تحول الاهتمام بها من الهواة إلى العلماء. فبعد أن حُلَّت رموز الكتابة المصرية الهيروغليفية سنة 1822 إثر اكتشاف حجر رشيد، ومعرفة نظام العصور الثلاثة سنة 1836، واكتشاف هنريك شليمان موقع طروادة عام 1870، ونشر أخبار اكتشاف مأرب في السنة نفسها، وأعمال كنوسوس في كريت عام 1900، ارتفع شأن الكشوف الأثرية، وقَدَّر الناس قيمتها، وبدأ العلماء دراستها لفهم تطور الحياة البشرية. وهكذا يمكن اعتبار

القرن التاسع عشر هو القرن الذي وُلِدَ فيه علم الآثار وخطا خلاله خطواته الأولى. وقد ظهرت ضمن علم الآثار علوم جديدة حسب المناطق الأثرية مثل علم المصريات (Egyptology) وعلم الآشوريات (Assyriology)، وعلم الآثار الكلاسيكية وعلم الآثار التوراتية وغيرها.

وفي القرن العشرين استُخدمت تقنيات جديدة في علم الآثار، عملت على تطويره مثل التأريخ بالكربون 14 المشع، والتصوير الجوي باستخدام الطائرات للكشف عن المواقع الأثرية، والتصوير بالأشعة السينية التي استخدمت لفحص المومياوات المصرية، والتصوير الراديوغرافي، والتحليل الجيوفيزيائي والبحث عن آثار قد تكون في أعماق البحار كالسفن الغارقة أو موانٍ ومُدُنٍ غطتها المياه (محمد مختار 28:1987 - 35). وهكذا صار علم الآثار يمتد في الزمان إلى ملايين السنين، وفي المكان إلى كل بقاع الأرض. وأصبح مصدراً مهماً من مصادر المعرفة عن أحوال الإنسان في الماضي، مما جعل أستاذ الآثار ر.ج. آتكينسون يقترح ضمناً عدَّ علم الآثار فرعاً من فروع الدراسات التاريخية (Atkinson 1965:4). أما محمد مختار (المرجع نفسه: 28-29) فقد قال إن الآثار تمثل الجانب العملي للتاريخ وتقدم لنا مصادره الأولى.

3.1 مجال علم الآثار وأهدافه

لقد ذُكر من قبل أنّ المجال الزمني لعلم الآثار يمتد إلى ملايين السنين في الماضي، وفي هذه النقطة بخاصة، يتفوق علم الآثار على "التاريخ التقليدي" الذي يقصر مادته على الوثائق المكتوبة، والتي لا يتجاوز أطولها عمراً خمسة آلاف سنة.¹ يشمل مجال علم الآثار كل عصور التاريخ البشري بما في ذلك عصور الكتابة وبخاصة العصرين القديم والوسيط.

وفيما يتعلق بأهداف علم الآثار يقول آتكينسون (المرجع نفسه: 3): "إن الهدف الأسمى لعلم الآثار هو التوسع في فهم الإنسان والطبيعة". لكن يُلاحظ المرء اليوم أن

¹ . بالمقابل هناك ميزات أو خصائص ينفرد بها التاريخ المستقى من المصادر المكتوبة، تجعله يتفوق على التاريخ المستقى من الآثار. وذلك مثل خاصية تفسير الأحداث بإرجاع أسبابها إلى دوافع شخصية في حالة أشخاص يملكون سلطة اتخاذ القرار. هناك خصائص أخرى ستذكر في مكانها.

بعض الدول والمجتمعات أخذت تُوظّف علم الآثار لخدمة أهداف قومية مشروعة مثل تقوية الحس الوطني، وبلورة الهوية، وحبّ الوطن لدى الشباب؛ وذلك عن طريق الكشف عن إرث أجدادهم وإبراز دورهم، ومساهماتهم في مسيرة تطور البشرية، بينما نجد دولاً أخرى وظّفته لأغراض وأهداف سياسية (إسرائيل مثلاً).

4.1 مهام رجل الآثار

يمكن القول، في كلمات مختصرة، إن مهمة رجل الآثار هي القيام بعمليات المسوحات الميدانية أو الإشراف عليها والتنقيب عن الآثار بطريقة علمية في المواقع المحددة التي تُختار. وبعد الفراغ من التنقيب يوثق عمله. وذلك بإعداد تقرير مُفصّل يصف فيه بالكتابة والصور والرسومات خطوات العمل والنتائج التي توصل إليها. ومن مهامه أيضاً دراسة الآثار وتحليلها بمنهج أو مناهج أثرية. فيما يلي مزيد من التفاصيل لما تقدم في الفقرة السابقة، مما يُعتقد بفائدته لاستجلاء مهمة رجل الآثار بصورة أكثر وضوحاً. إن المُتنبّع لمهام رجل الآثار يجدها تقع في ثلاث مراحل؛ هي ما قبل التنقيب، فالتنقيب نفسه، ثم ما بعد التنقيب.

1.4.1 مرحلة ما قبل التنقيب

تشتمل مرحلة ما قبل التنقيب على عمليتين أساسيتين هما

أولاً: جمع المعلومات عن الموقع

تُجمع المعلومات عن الموقع سواءً أكانت هي معلومات تاريخية أو جغرافية أو جيولوجية أو اجتماعية إلخ...

ثانياً: المسح الأثري بأنواعه المختلفة

المسح الأثري هو نقطة البداية لأي عمل ميداني. الهدف منه تحديد المواقع الأثرية التي كانت في يوم ما مسرحاً لنشاط إنساني قديم، يؤهل الموقع لأن يكون أثراً. والمسح الأثري أنواع. هي جويّ، أي من الجو، وأشهر وسائله المستخدمة التصوير

الجوي، وأرضي، أي على ظهر الأرض، ومائي، يستخدم في حالة الآثار الغارقة في الماء.

يقوم بالمسح الأثري فريق متكامل يرأسه رجل آثار متخصص. يشتمل الفريق على متخصصين في العلوم المساعدة الوثيقة الصلة بعلم الآثار، مثل الجيولوجيا، وعلم الحيوان القديم وعلم النبات القديم، كما يشمل أيضاً مُصوِّرين ورسامين ومَساحين وفَنِّيي مُختبرات وعمَّالاً.

2.4.1 مرحلة التنقيب

التنقيب عمل حذر ومُنظَّم لفحص مُخلفاتٍ حضاريةٍ تراكمت بمرور الزمن مع التربة. قد تكون هذه المخلفات ثابتة أو قابلة للنقل. وقد تكون غائرة في التربة تماماً أو جزئياً. في هذه المرحلة يحدد الخبير الطريقة التي سيتبعها في التنقيب (إما طريقة الكومة، أو الخندق أو الطريقة المستوية الشاملة). وفي العادة يقوم بالحفر عمال متخصصون. وأحياناً يُسَمَح للطلاب بالحفر للتعلُّم. وعند ظهور المعثورات يتولى الحفر خبراء في الآثار بالتدرُّج من صغار الخبراء إلى مدير البعثة.

3.4.1 مرحلة ما بعد التنقيب

تشتمل مرحلة ما بعد التنقيب على نوعين من الأعمال. هما الآتيان:

أولاً: توثيق العمل الأثري

يوثِّق العمل الأثري بتقرير مُفصَّل، يصف فيه رجل الآثار بالكتابة والصور والرسومات خطوات العمل والنتائج التي توصل إليها. ويشمل ذلك عدة أمور يأتي في مقدمتها التصنيف الأثري، ومعناه وضع المتشابه (من الأدوات أو الفخار أو الأسلحة أو القبور) في مجموعات بغرض تحديد أنواعها أو طرزها، ومن ثم الاختلافات فيما بينها. وبالطبع ليس ضرورياً أن يقوم بالتصنيف الشخص نفسه الذي أجرى التنقيب. وعند العثور على النوع نفسه من الأدوات والفخار في النوع نفسه من القبور يستطيع رجل الآثار أن يستنتج أن هذا التجمع من الأنواع يشكّل وحدة تعبّر عن مجموعة معينة من الناس، وأن تواتر هذا التجمع من الأنواع المتشابهة يشكّل الحضارات أو الثقافات،

والتي تشكّل بدورها وحدات التصنيف الآثاري (آتكسون، المرجع نفسه: 9).
 ويمراقبة مخلفات أي ثقافة يتسنى لرجل الآثار الوصول إلى عدة حقائق واستنتاجات،
 يجوز وصفها بالتاريخ أو التاريخ الثقافي لأصحاب هذه الثقافة (انظر المثال أدناه الفقرة
 3.3 عن مجتمع "المجموعة الحضارية أ").

ثانياً: الدراسة والتحليل

يجوز لرجل الآثار، في إطار الدراسة والتحليل، أن يحلل أي ظاهرة ثقافية معينة
 أو يفسرها. لكن المرء يُلاحظ أن رجل الآثار، عندما يقوم بهذه المحاولة، فإنه يجد نفسه
 مضطراً لتجاهل أي تفسير يقوم على الدافع الشخصي؛ فيستعيز عنه بمسببات ذات
 طبيعة عامة مثل تغيرات في البيئة والطبيعة، أو ضغوط اقتصادية واجتماعية عامة، أو
 أثر الاختراعات التقنية على الكثافة السكانية أو حجم الإنتاج وهكذا (الموضع
 السابق نفسه). ويرى الأستاذ آتكسون (الموضع نفسه) أن هذا النوع من التفسير
 المرتبط بثقافات عصور ما قبل الكتابة لا يرتقي في مستواه للتفسير الذي
 يجده المرء في التاريخ المُدَوَّن؛ فهو أقل منه درجة.

2. التاريخ

1.2 مفهوم التاريخ

عند استقراء ما كتبه المتأخرون والمُحدثون من عرب وغربيين عن مفهوم التاريخ،
 تبرز للقارئ عدة معانٍ مختلفة ومتباينة. وربما يرجع هذا التباين لخلط بعض الكُتاب بين
 معنى "لفظة التاريخ" وبين معنى "فلسفة أو مصطلح التاريخ".² فلفظة تاريخ في اللغات

² . إن موضوع الفرق بين مفهوم التاريخ وفلسفة التاريخ لا يخلو من تعقيد. يقول روزنتال (إن هناك تناقضاً وعدم انسجام بين إدراك معنى كلمة التاريخ وبين إدراك فلسفته 1983: 27)، وإن أصل كلمة تاريخ (History, Histoire) الموجودة في اللغتين الإنجليزية والفرنسية يعود للفظه الإغريقية إستوريا (istoria)، التي كانت، خلال القرنين السادس والخامس ق.م، تعني كل المعارف المهمة التي يجب أن يلم بها الرجل المتقف في دولة المدينة. (روزنتال، المرجع السابق نفسه: 16). وعندما جاء أرسطو (384-322 ق.م.) استخدم اللفظة نفسها للدلالة على السرد المنظم للظواهر الطبيعية. لكن الإغريق ما لبثوا أن أفردوا للأخيرة لفظه علم (science)، فاقصرت لفظه إستوريا على وصف الأحداث والوقائع البشرية. ثم أخذها الرومان عن اليونان بالاستخدام نفسه، ومن الرومان أخذتها بقية الدول الأوروبية. للمزيد انظر فرانز روزنتال (المرجع نفسه: 16-28). أما فلسفة التاريخ، فإنها شيء مختلف تماماً، فهي تقوم على تحليل الأحداث وتفسيرها، ولا تقف عند عصر معين أو مجتمع معين، متجاوزة الزمان والمكان، مستبدلة الكل بالفرد. لقد تحدثت فلاسفة التاريخ عن ماهية التاريخ، ما إذا كان هو علماً أم فنّاً، وعن موضوعاته، وتفسيره، وظهرت عدة مدارس في هذا المجال، أقدمها مدرسة ابن خلدون (1332-1406 م). ثم ظهرت المدرسة المثالية، التي أسسها هيجل (1770-1831 م؛ Hegel) والمدرسة المادية التي

الأوربية (الإنجليزية، الفرنسية والألمانية) لها مدلول الماضي (المعنى الأول). وهو المعنى الذي يتبادر إلى ذهن القاريء، مثلاً عندما يقرأ عنوان كتاب عالم الآثار المشهور غوردون تشايلد (Gordon Childe) " ما حدث في التاريخ" (*What Happened in History*). واللفظة لها المعنى نفسه في اللغة العربية بالإضافة لمعنى آخر مختلف عندما تكتب بهمز الألف هكذا "التاريخ". فحينئذ يكون معناها التعريف بالوقت أو الزمن والذي يقابله في الإنجليزية لفظة " (to) date , dating".

المعنى الثاني للتاريخ هو الذي يحمل مدلول العلم، الدراسة، تدوين الأحداث. وهو ما قصده هرنشو عندما وصف التاريخ بأنه "التدوين القصصي لمجرى شئون العالم كله أو بعضه" (هرنشو 1982:6). إن هذا التعريف يقترب جداً من تعريف روزنتال للتاريخ بأنه "الوصف الأدبي لأي نشاط إنساني ثابت قام به الأفراد أو الجماعات، والذي يتجلى في تطور أي جماعة أو فرد، ويؤثر على تطورها" (روزنتال 1983:18). أما قسطنطين زريق (1963:49)، فقد عرّف التاريخ بأنه "السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه". وتعدّ مثلاً للتاريخ بهذا المفهوم الأخير، كلُّ الكتب التي أُلِّفَتْ في تواريخ الشعوب مثل تاريخ كل من فرنسا، وإنجلترا، والسودان، ومصر، وغيرها. وكذلك أيضاً تُعدُّ الكتب التي تتحدث عن تاريخ كل من الفن، والعلوم، والأدب أو عن تاريخ أي شيء تطور على مر الزمن وخلف وراءه آثار تطوره.

إن استخدام التعبير "تدوين قصصي" في تعريف هرنشو، والتعبير "وصف أدبي" في تعريف روزنتال، يجب ألا يذهب بالقاريء للظن بأن التاريخ مُجرّد قصصٍ تُحكى، أو أنه فرع من فروع الأدب، بل إن ما قُصِد من الاستخدامين هو تبيان أنّ منهج التاريخ وصفيّ، وليس معياراً.

إن واقع حال التاريخ اليوم، ووضعه في الجامعات والمعاهد العلمية العالمية بخاصة، يؤكد أنه قد أصبح من العلوم المتطورة، سواءً أكان ذلك في مجال التدريس أم

أسسها كارل ماركس (1818-1883م؛ Carl Marx) ومدرسة أرنولد توينبي (1889-1977م؛ Arnold Toynbee)، وغيرها من المدارس.

البحث أم التأليف. وذلك بفضل الطريقة الدقيقة والصناعة المحكمة التي اتفق عليها وارتضاها علماء التاريخ المرموقون، وأصبح كل باحث يحاول اتباعها والالتزام بها. فحول هذا المفهوم للتاريخ يدور موضوع هذه المقالة.

2.2 تقسيم تاريخ البشرية إلى عصور

إن تقسيم مجمل الزمن الذي عاشه الإنسان إلى عصور وحَقَب قد أصبح حقيقة واقعة في الأوساط العلمية، وذلك بالرغم من تحقُّظ كثير من العلماء عليه. لقد صار مقبولاً لميزته في تسهيل العملية التعليمية؛ فهناك عصران كبيران، قُسم كل واحد منهما إلى وحدات أصغر، سُميت عصوراً كذلك. أُطلق على الأول "عصور ما قبل التاريخ"،³ ويُقصد به تلك الدهور الطويلة من عمر البشرية التي سبقت ظهور الكتابة. وأطلق على الثاني العصور التاريخية ويقصدُ به الفترة بعد ظهور الكتابة. من ناحية أخرى قُسم عصر ما قبل التاريخ إلى عصور ثلاثة متعاقبة؛ حجريّ، وبرونزيّ وحديديّ. وقُسم العصر الحجريّ بدوره إلى حجريّ قديم، وحجريّ وسيط وحجريّ حديث (محمد علي 1987: 14-15). ومن ناحية أخرى قُسمت العصور التاريخية إلى ثلاثة عصور: قديمة (التاريخ القديم) ووسيط (التاريخ الوسيط) وحديثة (التاريخ الحديث والمعاصر).

ما هذه العصور، بالطبع، إلا تقسيمات صناعية لا تنطبق على الواقع، إذ لا حدّاً فاصلاً بين عصر وآخر، وإنما يكون الانتقال من عصر إلى آخر انتقالاً تدريجياً وبطيئاً. ولئن سلم بها المرء جدلاً، فإنها غير متعاصرة في كل أنحاء العالم، كما أنه ليس بالضرورة أن تعيش كل المجتمعات كل هذه العصور. فهناك بعض المجتمعات انتقلت من الحجري القديم للحجري الحديث مباشرة، وأخرى بدائية معاصرة، أحوالها تشابه أحوال إنسان العصور الحجريّة. لكن مما لا شك فيه أن مسيرة تطور البشرية كانت بطيئة جداً في

³ . ظهر هذا التعبير لأول مرة عام 1833 عندما استخدمه أمين متحف ناربون وأرّخ به بعض المخلفات البشرية والحيوانية والأواني الفخارية. لكن الفضل في تعميم التعبير يعود للبريطاني دانيال ويلسون الذي ضمنه في عنوان لأحد كتبه صدر سنة 1851 أسماه "آثار وحوليات ما قبل التاريخ في أسكتلندا" (محمد علي 1987: 14).

عصور ما قبل التاريخ مقارنة بالعصور التاريخية، وأن البشرية جمعاء عاشت دهوراً طويلة جداً قبل اهتداء بعض الشعوب إلى اختراع نُظْم للتدوين والكتابة.

يقرر العلماء أن ظهور الإنسان على وجه الأرض كان قبل نحو ثلاثة ملايين (3 000000) سنة، أو أقل قليلاً؛ فقد قَدَّر العلماء عمر أقدم أحفورات بشرية عُثِرَ عليها حتى الآن بنحو مليونين وستمئة سنة إلى مليونين وثمانمئة ألف سنة (2 600000 - 2 800000). كانت قد أُكْتُشِفَت في حدَّار في إثيوبيا وأولدُفاي في تنزانيا (Philipson 1985). أما أقدم نقوش كتابية فقد كُتِبَت نحو سنة 3200 قبل الميلاد، وتَقَصَّد بها النقوش المصرية والرافديَّة. وبعبارة أخرى، إن عمر العصور التاريخية الثلاثة مجتمعة لا يتجاوز خمسة آلاف (5000) سنة، وهي نسبة تُعْتَبَر ضئيلة جداً من عمر البشرية.

بعد هذه المقدمة العامة عن العصور وتقسيماتها يعود المرء لاستخراج عصرها منها بعينه، وهو العصر التاريخي القديم لتوضيح بعض النقاط المتعلقة به مثل حدوده الزمانية، وخصائصه، وطبيعة مصادره.

3.2 العصور التاريخية القديمة

الرأي السائد هو أن العصور التاريخية القديمة بدأت مع اختراع الإنسان للكتابة، أي منذ نحو 3200 ق.م. وبالرغم من اختلاف بين العلماء في إعطاء قسبة السبق لأي من مصر في وادي النيل وسومر في بلاد الرافدين، فإنه يمكن القول إن الكتابة قد ظهرت في وقت متقارب (نحو 3200 ق.م.) في كل من سومر ومصر. فَكُتِبَت اللغة السومرية بالخط التصويري أولاً، الذي تطور تدريجياً إلى الخط الإسفيني، ثم المسماري. وكُتِبَت المصرية القديمة بثلاثة خطوط هي الهيروغليفية والهيراطيقي ثم الديموطيقي. بعد ذلك توالى نُظْم الكتابة بمرور الزمن في العديد من أقطار الشرق الأدنى مستفيدة استفادة مباشرة أو غير مباشرة من التجربة المصرية أو السومرية (عبد القادر محمود عبدالله 2005: 1-2 ، 25؛ وانظر النيهوم 1976: 48 أيضاً).

إذن من أهم خصائص العصر التاريخي القديم ظهور نظم للكتابة وانتشارها. وخلاصة ما أورده عبد القادر محمود عبدالله (2005) عن نشأة الكتابة وتطورها بعد

السومرية والمصرية هي ما يأتي. من المصرية استفادت الكتابتان الكنعانية المبكرة في بلاد الشام، والسودانية القديمة المشهورة بالمروية في السودان. ومن السومرية جاءت الأكديّة في العراق والإبلائية في بلاد الشام. ومن الأكديّة انحدرت الكتابات الحيثية في بلاد الأناضول، والأوراتية في الشمال الشرقي، من الحيثية، والعيلامية (الفارسية القديمة) والأخمينية في بلاد فارس. ولعل من الإبلائية جاءت الأوغاريتية. ومن الكنعانية المبكرة التي ظهرت في بلاد الشام في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وفي سيناء في القرن السادس عشر قبل الميلاد، انحدرت الكتابة الإغريقية والعربية الشمالية والجنوبية. واستمرت الكنعانية المبكرة في بلاد الشام حتى بلغت الطور الفينيقي نحو سنة 1000 قبل الميلاد. ومن الكتابة الفينيقية جاءت الكتابات المؤابية والعبرية القديمة والآرامية بعد القرن التاسع قبل الميلاد. لكن المؤابية والعبرية القديمة انقرضتا واستمرت الكتابتان الفينيقية والآرامية، لتسود الثانية على الأولى بعد ذلك. ثم تفرعت الآرامية بمرور الزمن إلى السريانية والعبرية الجديدة والتدمرية والنبطية؛ ومن الأخيرة (أو الأخيرتين في رأي بعض الباحثين) جاءت الكتابة العربية الحالية.

إنّ من خصائص العصور التاريخية القديمة ظهور إمبراطوريات ودول استعمارية كبرى مثل الدولة المصرية الحديثة، والإمبراطورية الآشورية، والإمبراطورية الفارسية، وإمبراطورية الإسكندر الأكبر، والإمبراطورية الرومانية. ويرتبط بهذه الخاصية الطابع الديني الذي اصطبغت به هذه الإمبراطوريات، وثنيةً كانت أم مسيحيةً. فقد اعتبر فراغة الدولة المصرية أنفسهم أبناءً للآلهة، بينما اعتبر الإمبراطور الروماني نفسه الكاهن الأعظم للمعبودات الوثنية. وبعد الاعتراف بالمسيحية لتكون الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في سنة 337 م اعتبر الأباطرة الرومان أنفسهم حماة للمسيحية. أما عن نهاية العصور القديمة فإن هنالك أكثر من رأي في الغرب. من ذلك. الأول هو أنها انتهت سنة 395 م، وهي السنة التي انقسمت فيها الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين؛ قسم شرقي عاصمته القسطنطينية، وغربي وعاصمته رافناً.

الرأي الثاني أنها انتهت عام 476 م، وهي السنة التي سقط فيها القسم الغربي في يد القبائل الجرمانية. أما عند المسلمين فإن نهاية العصور القديمة أكثر وضوحاً، حيث إنها انتهت فعلاً بظهور الإسلام، ثم انتشاره خلال الفتوحات الإسلامية. وعليه يمكن اعتبار عام 571 م، وهو العام الذي وُلِد فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، نهاية العصور التاريخية القديمة في المشرق الإسلامي، وبداية العصور التاريخية الوسطى.

3. وجوه العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم

إن العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم تتمثل في جملة فوائد ومكاسب أفادها كل علم من الآخر. لكن بعد رصد تلك الفوائد سيوضح للقارئ أن التاريخ القديم هو المستفيد الأكبر. فيما يلي ذكرٌ لأهم هذه المكاسب.

1.3 مكاسب التاريخ القديم من الآثار

1.1.3 صيرورة الآثار مصدراً مهماً من مصادر التاريخ القديم

يستقي مؤرخ التاريخ القديم مادته عن أحوال الإنسان في العصور القديمة من مصادر متنوعة. هي، باختصار، كل ما سلّم ووصل إلى الناس من آثار الماضي، سواءً أكانت نقوشاً أو كتابات قديمة أو مخلفات أثرية. وإذا سلّم المرء بوجود قلة من الآثاريين والمؤرخين ممن يتشككون في أهمية الآثار لمؤرخ العصر الحديث مثلاً، فسيجد أنّ جلّهم، إن لم يكن جميعهم، يعتقدون بأهمية الآثار كمصدر مهم جداً من مصادر التاريخ القديم. فهاهو المؤرخ الضليع ج. هرنشو يصف علم الآثار بأنه حليف للتاريخ (120:1982).⁴ ويقرر ر.ج. آتكسون (5:1956-6)، أستاذ الآثار بجامعة ساوث ويلز ببريطانيا، أن دور الآثار يتعاضد في العصور التاريخية التي تقل فيها المادة المكتوبة. وضرب مثلاً لذلك بالدور الذي لعبه علم الآثار في رسم صورة لتاريخ بريطانيا خلال

⁴ . تولى ج. هرنشو منصب أستاذية التاريخ الوسيط بجامعة لندن خلال الفترة من 1913 إلى 1934. وقد ألف العديد من المؤلفات تشهد له بطول الباع ورسوخ القدم في علم التاريخ.

فترة الاحتلال الروماني. كما وصف خبير الآثار المصري، محمد جمال الدين مختار (1987:28) التاريخ والآثار بأنهما توأمان مُتصلان، لا بد أن يتعاونوا لكشف الحقيقة التاريخية. ثم إن خبير الآثار السوداني، نجم الدين محمد شريف (1971:21)، أعلنها صريحة بقوله "إن الاكتشافات الأثرية هي أساس علمنا عن تاريخ السودان القديم، ولولاها ما عرفنا شيئاً يُذكر عن تاريخ هذا القطر". ويقصد نجم الدين شريف بالاكتشافات الأثرية كل ما تأتي به أي حفرة معنية من مكتشفات، بما في ذلك الرسوم المنقوشة والكتابات القديمة التي تأخذ قيمتها كشاهد كتابي أكثر منه أثري.

إن استخدام مؤرخ التاريخ القديم للمادة الأثرية، مزاجاً بينها وبين الشواهد الكتابية المحدودة، في رأي الكاتبة، أهم عنصر من عناصر العلاقة بين التاريخ القديم والآثار. وكما بيّن الأستاذ مختار (الفقرة 2.1 أعلاه)، يجب أن تتسم هذه العلاقة بسمة التعاون بين المتخصصين في المجالين، لكي تتحقق الفائدة المرجوة، وهي كشف الحقيقة التاريخية.

2.1.3 إثراء الكشوفات الأثرية المادة المكتوبة القديمة

باكتشافات كتابية جديدة

قبل أن يظهر علم الآثار إلى الوجود كان مؤرخ التاريخ القديم يعتمد على مصادر تحوم الشكوك حول مصداقيتها، مثل روايات الكتاب الكلاسيكيين، كتاب العهد القديم (المعروف بالتوراة حالياً) والروايات الشفاهية. لكن بعد تواتر الكشوفات بدأ تدفق المواد المكتوبة بشتى أنواعها. وفي الحقيقة كان العاملون في الحفريات الأثرية في حالات كثيرة جداً يبحثون عن وثائق مكتوبة بنصوص اللغات التي فكوا رموزها، والتي يمكن أن تشرح لهم الآثار نفسها. وقد أشير من قبل إلى أن معظم المعروف والمتداول من نقوش وكتابات قديمة قد ظهر عن طريق التنقيب الأثري. وهكذا يكون علم الآثار قد ساهم في كشف التاريخ عن طريق دعمه لمصادر التاريخ.

3.1.3 استخدام الآثار كتقنية تاريخية لرسم الإطار التاريخي

لبعض الممالك القديمة

إن أحسن مثال يمكن تقديمه لتوضيح الدور الذي يمكن أن تلعبه الآثار في رسم إطار التاريخ السياسي لمملكة من الممالك القديمة هو قائمة ملوك مملكتي نبتة ومروي⁵ (760 ق.م - 350 م) التي أنشأها عالم الآثار الأمريكي جورج أندرو رايزنر (G.A. Reisner) في عام 1923، بعد فراغه من عمليات التنقيب في كل الجبانات الملكية السودانية. لقد تمكن رايزنر من إنشاء أول قائمة متصلة وشبه مكتملة لهذه المملكة منذ قيامها نحو سنة 760 ق.م. وحتى سقوطها نحو 350 م، مستخدماً بالأساس وسائل أو تقنية آثرية صرفة، هي تقنية التصنيف والتسلسل (typology and seriation). طُبِق رايزنر هذه التقنية على أهرام الملوك المنتشرة في الكرو ونوري والبركل ومروي؛ فصنفها إلى مجموعات حسب مواصفات معينة مشتركة بينها جميعاً، مثل الشكل الخارجي للهرم، وشكل المقصورة المتصلة به، وأشكال حجرات الدفن وعددها، وشكل كلٍّ من الدَّرَج المؤدي لحجرات الدفن ومسدة الباب والتابوت ومادته، ثم تماثيل المجيبات (shwabti figures) وتفاصيل كثيرة تتصل بها وأشياء أخرى. فحيثما تطابقت أو تشابهت هذه المواصفات في عدد من الأهرام جعلها مجموعة في مرحلة أخرى. ومعتمداً على الملاحظة، اكتشف رايزنر وجود تداخل بين هذه المجموعات من حيث الأساليب المعمارية والزخرفية وغيرها. فقد لاحظ مثلاً أن المجموعة الواحدة، بالرغم من تميزها بعناصر معمارية وزخرفية معينة، كانت تحتوي كذلك على عناصر موجودة في مجموعة أخرى، سواءً أكانت سابقة أو لاحقة لها، ترتبط بها عن طريق تلك العناصر. وبهذه الطريقة تمكن هذا العالم الفذ من ترتيب ثمانية وستين هرمًا ترتيباً تسلسلياً زمنياً، وزاد على ذلك بمحاولات جادة للحصول على أسماء الملوك من النقوش الكتابية التي يعثر عليها في الأهرام. بل زاد على ذلك بتقديره طول عهد كل ملك عبر معادلة من ابتكاره هو (سامية دفع الله 2005: 12).⁶

⁵ المحرر: كذا عند المؤلفة. لكن المحرر يختلف معها في أن ما وصفته المحررة بمملكتين ما هما إلا فترتان سياسيتان وحضاريتان، لا مملكتين، نبتية ومروية، من تاريخ السودان القديم السياسي والحضاري.
⁶ بعد أكثر من ثمانية عقود من ظهورها، ما زالت قائمة رايزنر تمثل الأساس لأي عمل جديد في الكرونولوجيا النبتية والمروية. الجدير بالذكر أن ترتيب ثلاثة ملوك في قائمة رايزنر هم مالوي باماني، تلخمانى و أماني نتي يركي قد تعضد إثر اكتشافات جرت في موقع الكوة سنة 1931، جاءت بالنقش المعروف بكوة 9، وهو من أعمال الملك أماني نتي يركي. ذكر

4.1.3 إعطاء الآثار عمقاً زمنياً للتاريخ القديم بإضافة عصور ما قبل التاريخ

قبل ظهور علم الآثار، وتحديداً في النصف الأول من القرن السابع عشر، جاء فُس إيرلندي يدعى آرثر (Arthur) وأستاذ من جامعة كمبردج يسمى جون لايتفوت (John Lightfoot)، بنظرية تقول: إن عمر الكون لا يتجاوز الستة آلاف سنة (محمد علي 13:1987). وتأسيساً على هذه النظرية ظهرت تواريخ كثيرة تجعل خلق الكون في عام 4004 ق.م. وظل الناس يصدقونها حتى بداية القرن التاسع عشر (هرنشو 121:1983). لكن جاء علم الآثار فكشف أولاً عن إنسان بيلتداون (100 000 سنة) وإنسان هايدلبرج (250 000 سنة) وإنسان جاوة (500 000 سنة). وأخيراً، كما سلف ذكره، كشفت الآثار عن أدوات إنسان (حدار) في إثيوبيا وأولدفاي في تنزانيا التي تم تأريخها لنحو 2 800 000 سنة.

وتوالت اكتشافات علم الآثار عن نشاط الإنسان في تلك العصور الغابرة. ومن خلالها تبين أن تطور البشرية كان بطيئاً جداً في البدايات التي أُطلق عليها العصور الحجرية. وسبب الاسم "حجرية" هو أن صناعة تلك الأدوات من الحجارة كانت تهيمن على النشاط الإنساني فأصبحت أهم مخلفاته.

وبعد مئات الآلاف من السنين ازدادت وتيرة التطور نحو الأحسن، فدخلت بعض المجتمعات البشرية عصر البرونز. وبعد عشرات الآلاف من السنين انتقلت بعض المجتمعات لعصر الحديد. وفي العصر الحجري الحديث كانت مجتمعات كثيرة في الشرق الأدنى (كمصر، والسودان، والعراق وبلاد الشام) قد توصلت لمعرفة الزراعة واستئناس الحيوان، مما جعلها تميل للاستقرار، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في ظهور كثير من الاختراعات والاكتشافات المهمة، مثل وسائل حفظ الطعام وظهور التنظيمات الاجتماعية والكتابة.

وبظهور الكتابة (في وقت ما بين 4000 و 3000 ق.م) في كل من سومر (مصر) بدأت العصور التاريخية القديمة. أما كل الدهور التي سبقتها والتي أوجرت

الأخير في هذا النقش سلفه المباشر (تلخمانى) والذي قبله (مالويبمانى). انظر سامية دفع الله 2005:120-21. إن تأييد الكتابات لترتيب رايزنر يدل من ناحية أخرى على عبقرية الرجل ومقدراته الشخصية.

سيرتها في الفقرة أعلاه، فقد جرى التقليد منذ 1851 على تسميتها بعصور ما قبل التاريخ. ورغم رسوخ المصطلح وتغلغله في الكتب العلمية إلا أن هناك الكثيرين ممن اعتبروها تسمية غير دقيقة، وغير موفقة، ومن بينهم كاتبة هذا المقال. فإذا نظر المرء لتعريفات العلماء والفلاسفة للتاريخ سيجد من بينها من يعرفه بأنه "كل نشاط الإنسان في الماضي". وهذا المعنى نفسه هو كما أسلفنا هو الذي عناه رجل الآثار غوردون تشايلد في كتابه "ماحدث في التاريخ". وانطلاقاً من هذا المفهوم يجوز لمؤرخ التاريخ القديم أن يعتبر عصور ما قبل الكتابة (وهي التسمية التي تفضلها الكاتبة) امتداداً طبيعياً للوراء لعصور ما بعد الكتابة.

2.3 مكاسب علم الآثار من الكتابات

مما لا شك فيه أن علم الآثار الذي يدرس المجتمعات التي عرفت الكتابة قد استفاد إلى حد كبير من ميزة وجود الكتابة في تلك المجتمعات. تتمثل هذه الحقيقة بصورة جيدة في الحضارة المصرية، وبدرجة أقل في حضارتي نبتة ومروي السودانييتين، وحضارات أخرى.

وبالرغم من أن أكترية المباني والقبور الأثرية في مصر والسودان لا تصاحبها مادة مكتوبة، فإنها حين توجد، يستخدمها رجل الآثار، ويعتمد عليها في التأريخ والتحليل بالدرجة نفسها التي يعتمد فيها على المعثورات الأثرية البحتة (O'Connor 1990:237). وأحسن الأمثلة على ذلك قبور الملوك والنبلاء في البلدين. فعن طريق النقوش المصاحبة لها تم تأريخها والتعرف على أصحابها. وفي السودان يمكن القول إن جميع الجبانات الملكية في الكرو ونوري ومروي كانت ستُجابهُ مصير جبانات كرمة وبلانة وقسطل نفسه، لولا المكتوبات التي وجدَتْ بداخلها، وعزفت بأصحابها. وقد كان لوجود الكتابات الدالة على أسماء المدفونين في جبانة الكرو بصفة خاصة دورٌ في غاية الأهمية، لأن هذه الجبانة احتوت قبور أربعة من الملوك السودانييين الذين حكموا مصر، وكونوا في تاريخها ما يعرف بالأسرة الخامسة والعشرين. وبقدر جهلنا بأسماء ملوك كرمة وبلانة وقسطل، فإننا نجهل من ناحية أخرى هوية كثير من المباني العامة في الحضارات

والثقافات السودانية القديمة؛ لأنها بسبب طُرزها المُعقَّدة عجز رجال الآثار عن تحديد وظائفها. فكانوا، في أحسن الأحوال، يأتون بأكثر من مقترح للبناء الواحد (مثل الدفوفة في كريمة، والحوش المُسَوَّر العظيم في المصورات، والمبني الطيني ذي الطوابق المتعددة في كرنوق). وقد تكون هنالك حالات لمبانٍ مماثلة، لكنها تحتوي نصوص تُعرِّف بماهيتها، فتُعني رجل الآثار عن مهمة طرح تفسيرات محتملة لما قد تكون عليه.

3.3 مثال لتاريخ مجتمع سوداني قديم أُخذت مادته من الآثار

المثال المعني مأخوذ من ثقافة سودانية قديمة اكتشفها رايزنر سنة 1907 في عدد من المواقع في أقصى شمال النوبة السفلى، وأطلق عليها مسمى "ثقافة المجموعة أ" (A- Group Culture). فلعدم تمكنه من تحديد هوية أصحابها، ولكونها منتشرة في أكثر من موقع أيضاً، فلم يصح ربطها باسم موقع معين. ففي خلال الستينات والسبعينات من القرن الماضي اكتُشِف المزيد من المواقع، ونُشِرت عنها تقارير وافية. من أُميز هذه التقارير كتاب هـ. أ. نوردستروم (H. A. Nordström, *Neolithic and A-Group Sites*). الذي صدر في العام 1972. كان المؤلف نفسه قد شارك في عمليات التنقيب في عدد من المواقع حول الشلال الثاني ممثلاً لمجموعة الدول الإسكندنافية.⁷ فمن خلال فخار مصري و سلع مصرية أخرى، تَمَكَّن الخبراء منذ البداية من تحديد الوقت الذي عاشت فيه هذه الثقافة، والذي يمتد تقريباً من نحو 3700 ق.م. إلى نحو 2800 ق.م. وبهذا تكون ثقافة المجموعة أ معاصرة لثقافات ما قبل الأسرات في جنوب مصر (نقادة الأولى، الثانية والثالثة)، ولحقبه فجر الأسرات المصرية كذلك. إن كتاب الأستاذ نوردستروم (المرجع نفسه) ليس مجرد تقرير عادي مثل التقارير التي يكتبها رؤساء بعثات التنقيب عقب انتهاء العمليات في موقع معين عملت فيه بعثة معينة. بل هو عمل متكامل يجب أن يُحتدَى، رجح فيه المؤلف لكل التقارير السابقة والمؤلفات التي نُشِرت عن ثقافة المجموعة أ، فضلاً عن تقارير البعثة التي عمل فيها. لقد بدأ واضحاً أن المؤلف عمَدَ إلى إعطاء القارئ صورة تشبه التاريخ التقليدي بقدر

⁷ . هناك مؤلفات أخرى جيدة تناولت حضارة المجموعة أ. انظر عنها سامية دفع الله 1999: 78-119.

المستطاع عن أصحاب هذه الثقافة، بدأها بالحديث عن أصلهم. فعرض نظريتين وناقشهما، تقول إحداهما إن المجموعة أ تمثل هجرة مصرية للسودان، وتقول الأخرى بهويتها السودانية. فرفض الأولى وتبني الثانية ودافع عنها. ثم قسم الفترة التي عاشتها الثقافة (التي تجوز تسميتها تاريخها، مجازاً) إلى ثلاث مراحل: مبكرة، ووسيطه (classic) ومتأخرة. اعتمد المؤلف في هذا التقسيم على التطور والتغيير في فخارها، ذلك لأن الفخار الذي كثيراً ما يُستخدم في علم الآثار لهذا الغرض لخاصيته كمعلم أساسي للحضارات والثقافات القديمة.

بعد الحصول على هذا الإطار "التاريخي" انتقل المؤلف لملئه بتفاصيل مستقاة كلها من الآثار؛ فعرض تصوره لأوضاع أصحابها السياسية والاجتماعية، فاستنتج وجود تنظيمات سياسية في شكل إمارات صغيرة في بعض المراكز المهمة. عرج بعد ذلك إلى وصف أحوالهم الاقتصادية، وهو مجال يجد رجل الآثار فيه نفسه حاضراً أكثر مما يجدها في مجال الأحوال السياسية. فمن خلال العثور على بذور متفحمة لنبات القمح والشعير استنتج نورديستروم أن مجتمع المجموعة أ مارس حرفة الزراعة. كما قام العثور على عظام الماعز والضان برهاناً على ممارستهم تربية هذه الحيوانات. أما الأبقار فقد استدل على وجودها بالعثور على روثها مخلوطاً بصلصال الفخار. وأشارت مَخَلَفَات كعظام السمك والسنارات لممارستهم الصيد النهري. وهكذا يمكن القول إن غذاءهم كان متنوعاً؛ جمع بين البقوليات ولحوم الضان والماعز والأبقار ولحم السمك، وإن اقتصادهم هو الآخر كان متنوعاً، ارتكز على الزراعة وتربية الحيوانات والتجارة.

أما التجارة فيقصد بها على وجه الخصوص التجارة الخارجية. وقد دلّ على وجودها سلع ومصنوعات مختلفة ذات أصول مصرية عُثِرَ عليها في قبور المجموعة أ؛ مثل جرار فخارية كبيرة الحجم ومتينة الصنع، كانت تستخدم في مصر كحاويات للبضائع (العسل والنبيد)، ومصنوعات نحاسية مصرية كالفؤوس والخطاطيف والأزاميل والصنارات (تعتبر أقدم أدوات معدنية عُثِرَ عليها في السودان) ومصنوعات حجرية كالحلي والأواني

وألواح الأردواز. ومن الناحية الأخرى لم يُعثر على مصنوعات سودانية في مصر، عدا قليل من الفخار في بعض قرى جنوب مصر.

قادت هذه الحقيقة لاستنتاج متوقع، وهو أن الصادرات السودانية لمصر كانت تنحصر في مجموعة معينة من المواد الخام كانت تحتاج إليها مصر في كل عصور تاريخها؛ وهي العاج (سن الفيل)، وخشب الأبنوس، وجلود الحيوانات وبخاصة الحيوانات الرُّطَاء كالفهود والنمور، وأيضاً ريش النعام وبيضه وأشياء أخرى كالحيوانات الحية وربما العبيد.

أفرد المؤلف مساحة كافية لوصف الصناعات المحلية. فوصف الفخار من حيث المادة الخام، وطريقة صناعته وأشكاله، وخصائصه الجمالية من زخرفة بالتلوين أو بالتحزيز، وبيّن تميزه في منطقة وادي النيل. ووصف صناعات أخرى مثل صناعة الأواني، والأدوات الحجرية وصناعة السلال والبروش، والمصنوعات الجلدية.

وبالرغم من ضالة المكتشفات من آثار مواقع السكن، إلا أنه عُثر على بعض الآثار من هذا النوع؛ فقد عثرت إحدى البعثات على بقايا منازل مبنية من حجر تعتبر أول منازل من نوعها في تاريخ السودان. وصف نورديستروم هذه المخلفات بالتفصيل مبيناً تقنية البناء، ومخطط المنزل، وعدد الغرف، وأحجامها، وشكل الأرضيات. وكذلك وصف المنازل الأكثر انتشاراً في ذلك الوقت، وهي الأكواخ بالطبع، التي لم يبق منها سوى آثار دلت عليها، مثل آثار المواقِد أو الحُفَر التي كانت تغرس فيها الأعمدة.

وصف نورديستروم عادات الدفن عند أهل المجموعة أ، حيث إنهم كانوا يدفنون موتاهم في أماكن مخصصة في أطراف الصحراء بالقرب من القرى، وإن قبور السواد الأعظم من الناس كانت بسيطة بدون أبنية فوقية، وإنهم كانوا يلفون جثة الميت في حصيرة أو في قطعة من الجلد أو القماش، ثم يضعونها داخل اللحد في وضع قُرْفُصَائِي.

ولاحظ نورديستروم وزملاؤه أن قبور المجموعة أ كانت تُفْتَح من وقت لآخر لإدخال دفنات جديدة، كما لاحظوا أن قبور الأطفال وحدها تحتوي على غرابيل فخارية وبيض نعام. ولم تعرف مثل هذه العادات عند أي شعب آخر، حتى تُقَارَن بها ويُفَسَّرَ

مغزاهما. وهكذا يجد رجل الآثار نفسه عاجزاً عن تقديم تفسير مناسب لهذه الظاهرة المرتبطة بعادات الدفن في حضارة المجموعة أ.

ينتهي التقرير عن ثقافة المجموعة أ بالحديث عن نهايتها. فيذكر المؤلف أنها، ممثلةً في فخارها، اختفت بصورة مفاجئة في وقت ما قبل نهاية الأسرة المصرية الأولى. أما الكيفية فليس بمقدور الآثار أن تتحدث عنها. لكن اقترح خبراء الآثار تفسيرات عامة مثل تدهور أحوال المجموعة الاقتصادية (عامل اقتصادي) أو تعرضها لعدوان خارجي (عامل سياسي).

إن هذه الصورة التي رسمها نورديستروم عن مجتمع المجموعة أ بلا شك تصور جانباً من تاريخ هذا الشعب، وليس مهماً أن تكون مادتها قد أخذت من نقش كتابي أو من بردية، أو من بقايا مادية لا تحمل كتابات. إنها صورة حقيقية، لأن الآثار لا تكذب. ومن هنا يمكن لمؤرخ التاريخ القديم أن يُضَمِّن هذه الحقائق في أي كتاب يهدف لكتابة تاريخ قديم ما دامت الحقائق تشكل حلقة يمكن ربطها بحلقات أخرى. وهنا ترى الكاتبة أن مؤرخ التاريخ القديم عند استخدامه المادة الأثرية من الأسلم والأفضل له أن يستمدّها من مصادر أثرية في شكل تقارير متكاملة تماثل تقرير الأستاذ نورديستروم، وليس من التقارير الأولية المأخوذة بشكل مباشر من واقع العمل الميداني في موقع التنقيبات.

4.3 ملاحظات على نوعية التاريخ المبني على الآثار

من أبرز الملاحظات التي يمكن الإشارة إليها فيما يتعلق بالتاريخ المبني على مصادر أثرية، والتي يمكن استخراجها من الفقرة السابقة، هي غياب دور الفرد أو العنصر الشخصي. فالفرد لا مكان له في التاريخ المبني على الآثار، بطبيعة الحال، بالرغم من قناعة رجل الآثار بوجود شخصيات مؤثرة وفاعلة. لذلك فإن الجماعات أو المجتمعات تحل محل الفرد كما يتضح من المثال في المبحث 3.3 أعلاه. فإذا سئل مَنْ؟ فإن الإجابة لن تكون شخصية معروفة، بطبيعة الحال، بل تكون الإشارات دائماً للجماعة (أصحاب، أو أهل، أو مجتمع المجموعة أ).

ترتبط بهذه النقطة ملاحظة أخرى وهي تفسير الأحداث أو الظواهر؛ نحو التغييرات المادية كاختفاء نوع من الفخار وظهور نوع جديد، أو ظهور علامات ضعف أو تدنٍ في المستوى التقني أو الاقتصادي، أو ظهور عادات دفن جديدة. فنظراً لأن الآثار لا تتعامل مع الفرد، فإن التفسير المتاح لخبير الآثار سيكون من قبيل التفسير العامة التي ترجع مسببات التغيير لعوامل بيئية ومناخية، أو لضغوط اقتصادية أو لحدوث هجرات كبيرة أو لظهور تقنيات جديدة، وهذه من نقاط الضعف الموجودة في الآثار.

5.3 لماذا يَسْتُخْدِمُ المؤرخ الآثار؟

هذا السؤال مشروع. فقد أوضحت الكاتبة في صدر المقال أن بعض الطلبة قد سألوها. وللإجابة يورد المرء سببين.

السبب الأول عام، وهو أن استفادة العلوم من بعضها البعض من الأمور المُسَلِّم بها في كل المجتمعات المنفتحة. فقد تتأدى بأهمية هذا الأمر العلماء منذ وقت ليس بالقصير، فيما يعرف في الغرب بالعلوم المتداخلة (interdisciplinary systems)، ولم يعد العالم المتخصص في مجال بعينه يتفوق داخل تخصصه الضيق. بل أصبح يثري معارفه من كل العلوم المتاحة. والشيء نفسه ينطبق على المؤرخ؛ فيجب عليه أن يكون واسع الأفق، كثير الإطلاع، تواقاً للمعارف في كل مجال يثري تخصصه. والآثار، كما تقدم الذكر عنها، هي توأم للتاريخ وليس مجرد علم مساعد له. فمن الأحرى أن يتعلم المؤرخ كيفية الاستفادة منها، وهو أمر، إذا توفرت الإرادة، ليس بعيد المنال.

السبب الثاني، وقد أشير إليه صراحة أعلاه (1.1.3)، وهو أن الآثار مصدر لا غنى عنه للمؤرخ وبخاصة مؤرخ التاريخ القديم. أما لماذا مؤرخ التاريخ القديم بخاصة، فلأن الكتابات القديمة بشكل عام بها الكثير من نواحي القصور مقارنة بالكتابات من العصور الوسطى أو العصور الحديثة. وفيما يلي أبرز نواحي القصور في الكتابات القديمة.

1.5.3 قلة المادة المكتوبة من حيث الكمية

إن النقوش الكتابية تختلف من بلد لآخر، وفي البلد الواحد من فترة لأخرى، حسب الظروف التي حفظت تلك المصادر، بل حسب ظروف التنقيب أحياناً. لقد كان لاختراع الألماني قوتنمبرج (Gutenberg) ماكينة الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي (العصور الوسطى) أكبر الأثر في التوسع في عملية التدوين والكتابة في كل بقاع العالم المتحضر آنذاك.

وقبل ذلك التاريخ كانت السجلات بأنواعها المختلفة تُكتب بخط اليد. وكان مؤلفو الكتب يخطون مخطوطة أصلية واحدة ثم يدفعون بها للنساخ لنسخ المزيد منها. ومن حسن حظ هؤلاء النساخ أن الورق - الذي كان قد اخترع في الصين في بداية القرن الثاني الميلادي (سنة 105م) - بدأ يتوفر، وينتشر بصورة واسعة بعد القرن الثامن الميلادي.

وللقاريء أن يتصور كيف كان حال التدوين قبل اختراع الورق حين كانت وسائل الكتابة المتاحة تنحصر في المواد الصلبة مثل الحجارة والعظام والأخشاب ومواد أخرى كالجلود والرق، وفي أحسن الأحوال ورق البردي. ولاشك، إذن، في أن المصادر الكتابية المتوفرة من العصور التاريخية القديمة تعتبر غير كافية في كل الأحوال وفي كل الحضارات، بما في ذلك الحضارات التي اشتهرت بغزارة نسبية في الكتابات؛ كالحضارة المصرية والأشورية والكلاسيكية. ومن هنا كان لابد لمؤرخ العصور القديمة من اغتنام الفرصة باستغلال المصادر الأثرية لسد الفجوات الموجودة في تاريخ الشعوب التي تركت كتابات محدودة، أو عاصرت، أو جاورت مدنيات عرفت التدوين.

2.5.3 الصبغة النمطية أو المبالغة التي اصطبغت بها موضوعات بعض النقوش

إن الناظر في الإرث المكتوب للحضارات القديمة، وبخاصة تلك التي قامت في منطقة الشرق الأدنى القديم، ربما يصل إلى قناعة بأن كتاب ذلك التراث، لم يكن لديهم إحساس بالتاريخ. فأكثر كتاباتهم نمطية تقليدية؛ وإذا خرجت عن هذا الإطار؛ لِنُدُّرُ حدثاً مهماً، فإنها لا تمضي في ذكر التفاصيل التي يتوقعها المؤرخ، بل تعود مرة أخرى

للنمطية. ولهذا السبب فإن مثل هذه النقوش تكون ذات قيمة تاريخية محدودة إن لم تكن عديمة الفائدة.

ومن سمات النمطية تمجيد الملك ووصفه بصفات يحب أن يوصف بها دائماً، كالقوة، والعدل والقداسة، والتدين. فإذا خرج الملك غازياً أو محارباً لعدو ما، فإنه يفعل ذلك لإرضاء الآلهة؛ لأن من حاربهم هم أعداء للإلهة. وكمثال لذلك ألواح جميع الملوك السودانيين النبتيين (ببي، وتهارقو، وتتبوت أمانى، وأنلامانى، وأسبلتو، وأمانى نتي يركى، وحرسىوتف ونستاسن).

ثمة سمة أخرى تقلل من قيمة بعض النقوش القديمة هي الميل للمبالغة في ذكر الأعداد مثل أعداد القتلى في المعارك وأعداد الأسرى والسبايا ورؤوس الأبقار والثيران وكمية غنائم أخرى وقعت في أيدي الجيش المنتصر. مثال لذلك ما جاء في حوليات الملك المصري سنفرو، مؤسس الأسرة المصرية الرابعة، التي يتحدث فيها عن حملة تأديبية على السودان، رجعت إلى مصر، وفي معيتها سبعة آلاف أسير سودانى، ومائتا ألف رأس من الأبقار (سامية دفع الله 126:1999). ومثال آخر حوليات الملك السوداني نستاسن (السطور 46-56)، حيث أحصى عدد الأسرى والسبي ورؤوس الحيوانات بمئات الألوف، والذهب بعشرات المئات من الأرتال (سامية دفع الله 132:2005).

3.5.3 رداءة كثير من الكتابات من حيث حالة الحفظ ووضوح اللغة

إن النقوش والكتابات القديمة على قلتها، فمن بينها عدد مقدر لا يمكن الاستفادة منه للحالة العامة للنقش أو البردية المكتوب عليها. فالنقش قد ينمحي جزئياً أو كلياً بسبب عوامل طبيعية كالرطوبة ومياه الأمطار والسيول. وكذلك البردية، فهي أقل قدرة على مقاومة مثل هذه العوامل. ومن ناحية أخرى، قد تكون المشكلة في صعوبة فهم النص المكتوب. يحدث ذلك عندما يكون الكاتب غير متمكن من اللغة التي استخدمها سواءً أكان ذلك في نحوها وقواعدها أم مفرداتها. لقد وجدت كتابات من هذا النوع الصعب الفهم من موقع لحضارة سودانية تعرف باسم "المجموعة س" (ما بعد مروى) في قصر

إبريم. يرجع تاريخها للقرن الخامس الميلادي، مكتوبة بلغة إغريقية دارجة تعج بالأخطاء اللغوية والنحوية. ومن ناحية أخرى، هناك نقوش مكتشفة كُتبت بلغات لم تُحل رموزها حتى الآن، مثل الكتابات باللغة الكريتية، أو تلك المكتوبة باللغة المروية (السودانية القديمة) التي يمكن قراءتها، ولكن لا يمكن فهمها فهماً كاملاً.

4.5.3 عيوب تتعلق ببعض كتابات اليونان والرومان

ظهر كثير من المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان خلال عصور ازدهار الحضارات اليونانية والرومانية والبيزنطية من أمثال هيرودوت (Herodotus)، وأقاثرخيدس (Agatherchides)، وإراتوستينيس (Eratosthenes)، وديودور الصقلي (Diodorus Siculus)، وسترابو (Strabon)، وبليني (Pliny)، وبطلميوس (Ptolomy)، ويوسيفيوس (Josephus)، وأولمبيودور (Olympiodorus) وبروكوبيوس (Procopius). وغيرهم كثير. كتب هؤلاء روايات وحكايات عن بعض الحضارات والشعوب التي زاروها أو سمعوا عنها، يغلب عليها الوصف الجغرافي، ووصف عادات الشعوب، بينما يندر أن يجد فيها القارئ معلومات تتعلق بالتاريخ السياسي أو أخبار الحكام. من ناحية أخرى تتفاوت هذه الروايات من حيث مصداقيتها من كاتب لآخر؛ حيث يقارب بعضها درجة الخرافة أو الأسطورة. وقد يخلط الواحد منهم بين الغثّ والثمين، وبين الحقيقة والخيال، كما فعل هيرودوت في رواياته عن الإثيوبيين. هذا فضلاً عن كثرة النقل والتكرار. وقد كان في كتابات بعضهم كثير من الأخطاء أيضاً، سواءً أكان ذلك في أسماء الأعلام أم المواقع الجغرافية، أم غيرها مما جعل المؤرخين يترددون في تصديق كل ما يُكتب في هذه الروايات، أو على الأقل يستعملونها بكثير من الحذر.⁸

4. وضع التاريخ القديم والآثار في الجامعات العربية

⁸ . أمثلة من أخطاء تاريخية في تاريخ هيرودوت مثلاً إدعاؤه (الكتاب الثاني: 152) أن الملك السوداني شبكو حكم 50 عاماً قضاها في مصر، وأنه قتل نيخو والد الفرعون المصري بسماتيك، وأن الأخير، بعد مقتل والده هرب إلى سوريا. والصحيح أن حكم شبكو لم يتجاوز 14 عاماً، وأن الملك السوداني الذي قتل نيخو هو تننويت أماني وأن بسماتيك هرب إلى آشور.

وبعض جامعات الغرب والشرق

في الجامعات العربية تُدرّس مادة التاريخ القديم عادة في قسم التاريخ ضمن برنامج بكالوريوس الآداب، أو التربية كما في جامعة الخرطوم (بعض الجامعات في المملكة العربية السعودية تسمي هذا القسم "قسم التاريخ والحضارة"). في أغلب الجامعات العربية تُقدّم هذه المادة لطلبة المستوى الأول أو الثاني حتى يكون هنالك تسلسل تاريخي، وذلك بأن يدرس الطالب التاريخ القديم أولاً، فالوسيط (في المستوى الثاني أو الثالث) ثم الحديث (في المستوى الثالث أو الرابع).

أما مادة الآثار فتدرس عادة في قسم منفصل في كليات الآداب هو قسم الآثار. ففي السودان مثلاً أقسام آثار في كليات الآداب جامعة الخرطوم، وجامعة دنقلا، وجامعة شندي، وجامعة جوبا. وفي السعودية قسم يسمى قسم الآثار والمتاحف في كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض. وبعض الجامعات العربية تسمح نظمها بتعدد التخصصات. فيمكن للطالب أن يجمع بين مادتي التاريخ والآثار، بأن تكون إحدهما رئيسة والأخرى ثانوية. أما الجامعات التي تتبع نظام التخصص الواحد فلا تتيح للطالب مثل هذا الجمع. إن هدف النظام الأخير هو تمكين الطالب من أن يدرس في عام واحد أكبر عدد ممكن من التاريخ والحضارات القديمة، وبخاصة الحضارات الأكثر شهرة، سواءً أكانت في الشرق الأدنى أم في أوروبا.

أما فيما يتعلق بتفاصيل المنهج المتبع في تدريس مادة التاريخ القديم في الجامعات العربية بمختلف نظمها، فإن المرء يلاحظ أن هذه المادة تشتمل دائماً على أجزاء ابتدائية (أو مقدمات) يكون موضوعها حضارات أو ثقافات عصور ما قبل التاريخ.⁹ وبالنظر في الكتب الدراسية المقررة لهذه المادة، يلاحظ القارئ كثرة استخدامها للشواهد الأثرية أو المزج بينها وبين الشواهد الكتابية كأمر طبيعي، أو لازم لا يمكن الاستغناء عنه.

⁹ . للتدليل على ذلك انظر صفحة المحتويات في أي كتاب من الكتب التي تعطى للطلبة كمراجع دراسية (Text books) مثلاً: تاريخ الشرق الأدنى القديم لعبد العزيز صالح أو معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم لمحمد أبو المحاسن عصفور وغيرها.

في كثير من الجامعات الأوروبية أقسام خاصة بالتاريخ القديم وأقسام أخرى للآثار. لكن هنالك بعض الجامعات والمعاهد جعلت تدريس المادتين في قسم واحد، مثل جامعتي أكسفورد وليستر ببريطانيا.

في الجامعة الأولى تدرس المادتان في قسم أُطلقَ عليه اسم " قسم الآثار الكلاسيكية والتاريخ القديم". تدرّس فيه مقرراتٌ على مستوى البكالوريوس (ثلاث سنوات)، تتناول آثار العالم الكلاسيكي، وتاريخه وفنونه بتركيز على الحضارتين الكبيرين، الإغريقية والرومانية. وتتيح المقررات الاختيارية المتوفرة الفرصة لتعلم لغات قديمة كالإغريقية واللاتينية. يدرس الطالب في السنة الأولى أربعة مقررات؛ اثنان إجباريان، واثنان يختارهما من بين ثلاث مجموعات. تحتوي المجموعة الأولى على مقررات تاريخ، والثانية على مقررات آثار، والثالثة على لغات قديمة. وفي السنتين الثانية والثالثة يدرس الطالب ستة مقررات موزعة بين التخصصات الثلاثة نفسها، بينما تظل اللغات هي نفسها التي درسها في السنة الأولى، ولكن في مراحل متقدمة (<http://www.ox.ac.uk>. 2007/2008).

أما جامعة ليستر، ففيها قسم يسمى "التاريخ القديم والآثار". يمنح درجة البكالوريوس في هذا التخصص. تهدف الدراسة في هذا القسم إلى تعريف الطالب بالمجتمعات والحضارات التي عاشت في الماضي، بتركيز على الحضارتين الإغريقية والرومانية. والفكرة الأساسية التي قام عليها هذا القسم هي الدمج بين المصادر الكتابية الكلاسيكية من جانب، والمصادر الأثرية المادية من الجانب الآخر. كما تُولي الدراسة في هذا القسم اهتماماً خاصاً بالعلاقة التي قد تبدو أحياناً متناقضة بين هذين النوعين من المصادر (<http://www.le.ac.uk>)

5. الخلاصة

إن هذه الأقسام، التي قامت في الجامعتين الأخيرتين، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن تلك المؤسسات التعليمية قد توصلت إلى أهمية الربط والجمع بين التاريخ القديم والآثار؛ لأن الواحد منهما يكمل الآخر. وتؤيد الكاتبة هذا الاتجاه وتطرحه في شكل توصية لمؤسسات التعليم العالي سواءً أكانت في السودان أم في الوطن العربي بشكل عام.

تقترح الكاتبة أن يُعاد النظر في نظام التخصص الواحد، وأن يستبدل بنظام الجمع بين أي مادتين (major-minor)، يمكن أن تكمل إحدهما الأخرى، مثل الآثار والتاريخ القديم، والعلوم السياسية والتاريخ الحديث، والآثار والجيولوجيا، والجغرافيا الطبيعية. وهكذا.

المراجع

أولاً: العربية

- دفع الله، سامية بشير
1999 ، تاريخ الحضارات السودانية القديمة. الخرطوم: دارهائل للطباعة والنشر والتأليف.
- 2005 تاريخ مملكة كوش (نبتة ومروي). الخرطوم: دار الأشفاء للطباعة والنشر. روزنتال، فرانز
- 1983 علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة صالح العلي. بيروت: مؤسسة الرسالة. زريق، قسطنطين
- 1963 نحن والتاريخ. بيروت: دار العلم للملايين. شريف، نجم الدين محمد
- 1971 السودان القديم وآثاره. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم. عبدالله، عبد القادر محمود
- 2005 "لمحة عن ظهور الكتابة وتطورها في الوطن العربي". في الأنصاري، عبدالرحمن الطيب (محرر)، كتاب الأمة العربية، الرياض، 1-51.
- محمد علي، عباس سيد أحمد
1987 "علم الآثار المولد والنشأة"، المنهل 48 (الرياض): 12-21.
- مختار، محمد جمال الدين
1987 "استخدام التقنية الحديثة في مجال الآثار"، المنهل 48 (الرياض): 28-35.
- هرنشو. ج
1982 علم التاريخ. ترجمة عبد الحميد العبادي. بيروت: دار الحدائث للطباعة والنشر والتوزيع.
- النيهوم، الصادق
1976 بهجة المعرفة، موسوعة علمية مصورة، المجموعة الثانية، (3) مسيرة الحضارة، تأليف وترجمة نخبة من أساتذة الجامعات العربية. الشركة العامة

للنشر والتوزيع والإعلان.

ثانياً: الفرنجية

- Atkinson, R.J.C.
1965 *Archaeology, History and Science*. Cardiff: University of Wales Press.
[Http/w.w.w.le.ac.uk](http://www.le.ac.uk).
2007/2008 "Ancient History and Archaeology".
[Http/w.w.w.ox.ac.u](http://www.ox.ac.u)
2007/2008 "Classical Archaeology and Ancient History".
- Nordström, H. A
1972 *Neolithic and A-Group Sites. Scandinavian Joint Expedition.3*. Uppsala: Scandinavian University Books.
- O'Connor, D.
1990 "Egyptology and Archaeology: An African Perspective". In ed. *A History of African Archaeology*. London: James Currey, 236-251.
- Philipson, D. W.
1985 *Archaeology*. Cambridge: Cambridge University Press.